**البنيوية أو المنهج البنيوي.**

 إن أهمّ ما تقوم عليه البنيوية من الأسس الكبرى لفلسفتها أنّها تتعامل مع اللّغة والخطاب وترفض الإنسان، فهي ترفض النظريات النقدية ذات النّزعة النفسية القائمة على التّحليل النفسي للنص الأدبي وصاحبه، حيث نجد **جيرار جينات** «Gerard Genette» من أكثر النقاد الفرنسيين عناية بالسّرديات على الطريقة البنيوية يرفض تماما تحليل نصّ من النصوص بالمنهج النّفسي.

**1/ روافد البنيوية:** (ظهور البنيوية في النقد الغربي)

 لكي نفهم البنيوية لابّد من العودة إلى أصولها الأولى، قبل أن نرى كيف تصبّ في الدراسات النقدية والأدبية، فهي تسعى لمقاومة فكرة التّاريخ، ودراسة الخطاب في ذاته.

**أولا/ أبحاث دي سوسير:**

 تمثل المبادئ اللغوية التّي أقرّها **دي سوسير** نقطة الانطلاق للنظرية البنيوية، فقد استمدّت من اللّسانيات خاصة **دي سوسير** (1857-1913) أب الألسنية البنيوية، وإن لم يستعمل سوسير كلمة **"بنية**" إلاّ أنّه **مهّد لاستقلال النّص** الأدبي بوصفه نظاما لغويا خاصا، وفرّق بين اللّغة والكلام، فاللغة عنده نتاج المجتمع للملكة الكلامية، أمّا الكلام فهو حدث فردي متّصل بالأداء الفردي.

 ففي القرن التّاسع عشر نادى الباحث الاجتماعي دوركايم بالنظرة المسمّاة **"العقل الجمعي"**، ودعا إلى دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وتبعا لذلك ظهر الباحث اللساني دي سوسير بنظريته في "ظاهرة اللغة"، حيث جرّد اللغة من دلالاتها الإشارية المألوفة وعدّها نظاما من الرموز يقوم على علاقات ثنائية، ومن هنا ظهرت فكرة البنية. فالمفهوم الأساسي عند سوسير هو مفهوم النّظام (Système) فاللغة نظام.

**ثانيا/ ميراث الشكلية الرّوسية:**

 تعدّ هذه المدرسة الرّافد الثّاني من روافد البنيوية بعد أن وضع دي سوسير حجر أساسها.وقد فصلنا الحديث عن هذه المدرسة في المحاضرة الأولى.

مفهوم ا**لبنيويــــــــــة:**

1. **المفهوم اللّغوي للبنيوية:**

 البنيوية من البنية، لغة: بنى، يبني، بناء، لقد استخدم مفهوم البناء في فنّ العمارة في القرن 19 قبل أن يكون في مفهومه النّقدي المعرفي، وتعني البنية، الطريقة التّي يقوم بها البناء، ويختلف في طريقة البناء، وليس البناء في شكله النّهائي فلكلّ واحد أسلوبه الخاص، والمفهوم الاصطلاحي للبنية متقاطع مع المفهوم اللّغوي، فالبنية تنشأ من خلال تركيب وتنظيم العناصر فيما بينها.

**البنية:** مثلا: إذا رمينا حجرا في الماء يحدث تموّجات ثمّ سرعان ما يستقر الماء، كذلك البنية (اللّغة): إذا دخل عنصر غريب إلى اللّغة يحدث تصدعا في اللّغة ثمّ سرعان ما تعود كما كانت بنيتها مستقرّة.

**2- المفهوم الاصطلاحي:**

 البنيوية منهجية ونشاط وقراءة وتصوّر فلسفي يقصي الخارج والتّاريخ والإنسان، وكل ما هو مرجعي وواقعي، ويركز على ما هو لغوي فقط، حيث يستقرئ الدّوال الدّاخلية للنّص دون الانفتاح على الظروف السياقية الخارجية التّي قد تكون أسهمت في إنتاج هذا النّص من قريب أو من بعيد وهذا يشير إلى أنّ البنيوية تتعارض مع المناهج الخارجية كالمنهج النّفسي والمنهج الاجتماعي والتّاريخي.

\* النبوية كنظرية هي التّي تبحث في نظام النّص، بمعنى أنّها تكتفي بالنّص فقط، من خلال التّركيز على هذا النّظام الذّي تشكله البنيات.

**تعريف معجم لاروس للبنيوية:**

 البنيوية تيار فكري يعطي الأولوية للكلّ على الأجزاء، ويعطي الأولوية للعلاقة الموحّدة للأجزاء فيها على الأجزاء في ذاتها أو في تطوّراتها منفردة.

يقدم **جان بياجي** تعريفا للبنية باعتبارها نسقا من التحولات لها قوانينها الخاصة، «علما أن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق، أو تستعين بعناصر خارجية، وبإيجاز فالبنية تتألف من **ثلاثة خصائص** هي الكلية والتحولات، والضبط الذاتي»، وهي كالآتي:

**أ- الكلية**:

 هي مجموع العناصر الداخلية الخاضعة للقوانين المكونة للنسق ولا تقوم على (العنصر الواحد)، أو على (الكل) الذي يفرض نفسه على بقية العناصر المكونة للنص، وإنما تتمثل البنية من خلال العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء.

**ب- التحولات**:

وهي جملة التغيرات التي تحدث داخل النسق، ذلك لأن البنية في تحول مستمر، وتغير يستجيب للقوانين الداخلية للنسق، ولا يلتفت إلى التأثيرات الخارجية.

**ج) التنظيم (الضبط) الذاتي**:

 التحولات الحاصلة بين عناصر البنية الخاضعة للقوانين الداخلية للنسق، بمعنى أنها تنظم نفسها بنفسها حفاظا على وحدتها، مما يحقق لها صفة الانغلاق الذاتي.

ونخلص من خلال هذه الخصائص التي حددها **بياجي** بأن البنية تنحصر في ثلاثة عناصر **فخاصية الكليـــــة** ومفادها أن البنية مكتفية بذاتها، ولا تحتاج إلى وسيط خارجي، بينما **خاصية** **التحــــــولات** فهي توضح التغيرات داخلها، والتي لا يمكن أن تبقى في حالة ثبات لأنها دائمة التحول، أما **خاصية التنظيـــــم الذاتي** فهي تمكنها من تنظيم ذاتها للمحافظة على وحدتها واستمراريتها.

1. **مبادئ البنوية:**

 تقوم البنيوية كغيرها من النّزعات المذهبية على جملة من الأسس الفلسفية والفكرية والإيديولوجية، ومنها.

**3-1/ رفض التّاريخ:**

 رفضت البنيوية أن يقرأ النّص الأدبي باعتبار عرق الكاتب ووسطه، لأن الأدب الجيّد هو ما يحمل قيمة في ذاته.

**3-2/ رفض المؤلف:**

 ترفض البنيوية النظرة التّي تقول إنّ المؤلف هو منبع المعنى في النّص، لأنّ اللّغة هي التّي تتحدّث، «ولقد ذهب هذا المذهب، فيما بعد، جملة من المنظّرين الفرنسيين منهم رولان بارث وميشال فوكو، وكلود ليفي ستراوس...». إذ نجد بارث يعادي كلّ دعوة تنادي بدراسة شخصية صاحب النّص للوصول إلى دلالته.والحديث عن موت المؤلف، كما يؤكّدها بارث يدخل ضمن الحديث عن نظرية نقدية حداثية عرفت بنظرية التّلقي.

**3-3/ أدبية الأدب:**

 يقول **تودروف** في كتابه **«الشعريّة»** في تحديد مفهوم الأدبيّة «ليس العمل الأدبي في حدّ ذاته هو موضوع الشعريّة، بل تلك الخصائص المجرّدة التّي تصنع فرادة الحدث الأدبي أيّ الأدبية، أو بمعنى آخر البنية التّي تشكّل وفقها النّص الأدبي.

يقول كلود ليفي ستراوس: «غرض العلوم البنيوية هو كل ما يتّسم بطابع النّظام».

**4- رواد البنيوية في الغرب:**

 **-** تمثل الأفكار التي طرحها **دي سوسير** في بداية القرن العشرين المحطة الأولى في تأسيس مفاهيم البنيوية، فقد أحدثت أفكاره قطيعة إبستيمولوجية مع التفكير النقدي السياقي فــ «موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنما هو اللغة في ذاتها ولذاتها»، وهو المبدأ الذي تبناه المنهج النسقي في قراءته للنص الأدبي فهو يسعى للكشف عن **بنيته الداخليــــة** **وعلاقـــــــة عناصره اللغويــــة**،

 **-** كما تعتبر المدرسة **الشكلانية** من أهم المدارس التي أسهمت بقوة في التأسيس للاتجاه البنيوي فـكثيرا ما «ما ارتبط استخدام مصطلح البنية في المؤتمر الذي عقده الشكلانيون الروس لعلوم اللسان في مدينة لاهاي سنة 1928»، ويرون أن «**رومان جاكبسون** هو أول من استعمل هذا المصطلح بمعناه الحديث وذلك في البيان الذي أصدره في أعمال المؤتمر سنة 1929»، وناد أصحاب هذه المدرسة بضرورة **اقتصار النظر على المضمون الجمالي للأدب؛ الشكل،** وعدم الالتفات إلى أي مفاهيم أو أفكار أو أراء، وقد عبروا عن ذلك في مبدأين اثنين:

**المبدأ الأول:**

 ولخصه رومان جاكبسون في قوله: «إن موضوع علم الأدب ليس هو الأدب، وإنما **الأدبية (Litterarite)** »، وبذلك حصروا اهتمامهم في نطاق النص.

**المبدأ الثاني:**

 ويتعلق بمفهوم **بالشكل،** فقد رفضوا رفضا باتا ما كانت تذهب إليه النظرية النقدية التقليدية من أن لكل أثر أدبي ثنائية متقابلة الطرفين، هي الشكل والمضمون، وأكدوا أن الخطاب الأدبي يختلف عن غيره ببروز شكله.

- أما ا**لناقد الفرنسي رولان بارت** (Roland Barthes) 1915- 1980 فــعلى الرغم من «تجاوزه البنيوية وما بعد البنيوية من مدارس نقدية»، غير أن اسمه بقي مرتبط بالمنهج البنيوي، هذا يعود إلى الأفكار التي جاء بها، فأصبحت معلما بارزا من معالم البنيوية هذه الآراء التي تتوزع على محاور العملية الإبداعية: (المبدع والنص، والمتلقي)، في الوقت الذي قام رومان جاكبسون بــ: «دراسات حول ا**لفونولوجية** وحول **وظائف اللغة**، وفتح باب البحث في الشعرية (Poeticite) في الاستقلالية النسبية للظاهرة الأدبية».

اهتم هؤلاء النقاد بلغة الأدب، فهي في نظرهم جوهر تكوينه، وأهملوا في دراساتهم الأفكار التي يتكون منها، ولا بالأحاسيس والآراء التي يعبر عنها، بل **أولوا بالغ العناية بالجسد اللغوي للنص الأدبي**، واتخذوا من اللغة منطلقا لهم في مقارباتهم النقدية، وليس مما وراء اللغة لا ترتبط مباشرة بمادة الأعمال الأدبية.

وهكذا تغدو مهمة الناقد البنيوي هي النظر إلى **لغة النص الأدبي**، لتبين مدى **تماسكها وتنظيمها المنطقي**، ومدى قوتها وضعفها بغض النظر عما يحمله المضمون من آراء وأحاسيس فهو يرى أن الظاهرة الأدبيـــة من الجانب اللغوي والفني والجمالي.

**5/ آليات الناقد البنيوي**:

أما عن آليات الناقد البنيوي، أو كما يسميها بسام قطوس **مبادئ أو مفاهيم البنيوية** التي يشكل حضورها على المستوى التطبيقي ركيزة بارزة ومن أهمها:

**أ/ اللغة والكلام (Langue- Parole):**

يرى البنيويون أن دراسة اللغة يجب أن تكون في بعد إنتاج النص، بحيث يمكن فيها تحليل العلاقات المتزامنة بين أجزائها المكونة من التركيز على الجوانب التاريخية التعاقبية التي تهتم بتغير اللغات حسب الأزمنة، «فهي تضغط على الكلام بأنظمتها، ويضغط الكلام على اللغة بالابتكار،

 تٌعتبر اللغة المادة الخام التي يستخدمها الأدباء وسواهم شعرا أو نثرا في حياتهم العملية وفي حياتهم التخييلية، فهي تستخدم في الدرجة الصفر على رأي **رولان بارت** في التواصل وتستخدم في درجات أخرى متفاوتة حسب قدرة المبدع بطرق مختلفة. واللغة عنده نظام اجتماعي مستقل عن الفرد ولا شعوري، إذ هـي تمثل مجموع القوانين والقواعد العامة التي تتحكم في إنتاج الكلام، وهـي تمثل السلطة التجريدية المتعالية التي يستمد منها الكلام اختياراته الفعلية، أما الكلام فـهو التطبيق الفعلي لهذه القوانين والقواعد العامة والمستوى الفردي لها، ولذلك فالكلام يتنوع بتنوع الأفراد»، وبهذه العلاقة أثرت البنيوية في الأدب ونقده.

 ولهذا أشار العديد من النقاد إلى العلاقة بين اللغة والكلام ورأوا بأن «الفصل بين اللغة والكلام ليس إلا فصلا لغايات الدراسة العلمية، ولكن العلاقة بينها تمثل علاقة الكل بالجزء فاللغة هي الكل، والكلام هو الجزء ...

**ب/ نظام العلاقات (Relation System):**

ما **يحكم** هذه العناصر ومستوياتها، **ويربط بعضها ببعض** هو ما يطلق عليه **النظام** وأن أي خلل في العلاقة بين العناصر نفقد النظام توازنه، فاللغة في نظر البنيويين «نظام من العلاقات والتعارضات التي يجب أن تتحدد عناصرها على أساس شكلي وتخالفي، ولعل أهم الدروس في الثورة "الفونولوجية" بالنسبة لليفي شتراوس هي التعامل مع العناصر باعتبارها كيانات مستقلة، وتركيزه بدلا من ذلك على العلاقات بين هذه العناصر». فإذا كان النظام اللغوي هو: «سلسلة من الفروق الصوتية ترتبط بسلسلة من الفروق في الأفكار» فإننا نجد أن كل عنصر من عناصر النظام يكتسب قيمته من علاقته مع غيره من العناصر الأخرى.

**ج/ التزامن والتعاقب:**

مفهوم التزامن (Synchronie) يعني «مجموع الظواهر وهي في حالة سكون أو ثبات، أما مفهوم التعاقب (Diachronie) فيعني مجموع الظواهر نفسها وهي في حالة صيرورة»، وإذا كانت «اللغة تسمح نسبيا بدراستها تزامنيا فإن دراسة الظواهر الاجتماعية تتطلب الربط بين التزامني والتعاقبي»، وبذلك فإن الظواهر الإنسانية بما فيها الإبداع الأدبي لا يمكن عزلها عن تاريخها فهي تعتبر عن زمن وتاريخ معينين، وإذا ما أردنا نقل هذين المصطلحين من حقل اللسانيات إلى حقل النقد، إن ثمة نوعين من أنواع العلاقات التوزيعية:

**د/ العلاقات التركيبية (التتابعية):**

تتعلق بإمكانية التأليف، وهي تعني دخول وحدتين في علاقة ذات سمة تبادلية، تنافرية أو غير تنافرية.

**ه/ العلاقات الاستبدالية:**

وهي العلاقات التي تحدد إمكانية الاستبدال، والتي تنطوي على أهمية خاصة في تحليل النظام، إن معنى أي وحدة يعتمد على الاختلافات بينها وبين وحدات أخرى كان من الممكن أن تحل محلها في إحدى المتتاليات.

**و/ الحضور الغياب:**

فيما يخص طبيعة العلاقات، علاقة الحضور والغياب، فلا تأتي إلا إذا رجعنا إلى الأداة (اللغة) «وعندما تصاغ هذه القاعدة اللغوية في إطار جمالي نقدي فإنه يترتب عنها التمييز بين نوعين من العلاقات التي يمكن ملاحظتها في العمل الأدبي، علاقات تقوم بها العناصر الحاضرة وأخرى تقوم بينها وبين العناصر الغائبة»، وقد نبه سوسير إلى هذه القضية في أكثر من مناسبة، «وقد ظهر التطور الأمثل لثنائية الدال والمدلول لدى سوسير فيما يسمى بعلائق الحضور والغياب».

هذه الفكرة تمثلتها جهود البنيويين في بحثهم الدلالي عن ظاهرة النص وباطنه، مما أعطى لمفهوم الدال والمدلول دفعة جديدة فنجد، **رولان بارت** يرفض فكرة **الصلة الثابتة** بين الدال والمدلول حين ذهب «أن الإشارة (تعوم) سابحة لتغري المدلولات إليها لتنبثق معها وتصبح جميعا (دوال) أخرى ثانوية متضاعفة لتجلب إليها مدلولات مركبة، وهذا حرر الكلمة، وأطلق عنانها لتكون (إشارة حرة)، وهي تمثل حالة (حضور)، في حين يمثل المدلول (حالة غياب) لأنه يعتمد على **ذهن المتلقي** لإحضاره إلى دنيا ا**لإشارة**» (التأويل). هذا ما يتطلب وجود قارئ حذق قادر على **إيجاد العلاقة الجدلية القائمة بين الدال والمدلول لإحضار الدلالة.**

**البنيوية في العالم العربي: (هذا العنصر لا يدخل في الامتحان)**

 لم يكن النقد الحديث بمنأى عن التطورات السريعة الحاصلة في ساحة الأدب والنقد العالميين، فقد تلقى النقاد العرب المحدثون البنيوية كما تلقوا غيرها من الاتجاهات والمناهج النقدية في فترة السبعينات، وهذا التلقي تجلى من خلال من خلال تعريب وترجمة العديد من الدراسات النقدية، ومن أبرز هؤلاء نذكر: كمال أبوديب، وسعيد علوش، ومحمد مفتاح، ومحمد بنيس، وعبد المالك مرتاض، وجابر عصفور، ويمنى العيد، وسعيد يقطين، وغيرهم.

**فكمال رائد** من رواد البنيوية في النقد العربي الحديث الذين أصّلوا لها، فحمل على عاتقه الترويج لها والتنظير أيضا، وهذا ما تجسد في كتابه

 **"جدلية الخفاء والتجلي"**، وهو عبارة عن دراسة بنيوية في الشعر، بالإضافة إلى إصداره كتاب آخر عنوانه "البنية الإيقاعية للشعر العربي".

 فـفي كتابه الأول يقدم تعريفا لبنيويته قائلا: «أنها ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود، ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقفه منه وبإزائه في اللغة، لا تغير اللغة، وفي المجتمع لا تغير البنيوية المجتمع، وفي الشعر لا تغير البنيوية الشعر، لكن، ... المكونات الفعلية للشيء، والعلاقات التي تنشأ بين المكونات، تغير الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر، وتحوله إلى فكر متسائل قلق متوتّر، ومكنته من فرض، فكر جدلي شمولي في رفاهة الفكر الخالق وعلى مستوى من اكتمال التصور والإبداع».

فـمن هذه الفكرة المقتضبة ندرك أن البنيوية ليست إلا تثوير جذري للفكر، وأنها ثورة على المجتمع واللغة والشعر، إذ تغيـر كل ذلك وتحوله كما قال إلى فكر متسائل وقلق.

كما يصرح كذلك **كمال أبو ديب** أنها: «توظيف منظورا يسهم في تشكيله عدة تيارات منها: التحليل البنيوي للأسطورة كما هي عند **ليفي شتراوس** في الأنثروبولوجية البنيوية، والتحليل الشكلي للحكاية كما هي عند **فلادمير بروب**، ومناهج تحليل الأدب المتشكلة في إطار معلومات التحليل اللغوي، والدراسات اللسانية والسيميائية، والمنهج البنيوي التكويني النابع من معطيات الفكر الفلسفي عند لوسيان غولدمان»، كلها اتجاهات كبيرة متعددة المشارب، ومتنوعة الخلفيات الفكرية والفلسفية.

 كما نجد الناقد الحداثي **عبد الله الغذامي** الذي تبنى البنيوية التشريحة في كتابه "الخطيئة والتكفير"، «وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي، وسبل تحرره هي الانطلاق من مصدره اللغوي، حيث كان مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي البشري».

 ومنه نرى أن **الغذامي** يمثل البداية التاريخية للمشروع النقدي الحداثي، والمتصفح لكتابه "الخطيئة والتكفير"، يلاحظ أنه يعتمد في كتاباته النقدية على نصوص (جاكوبسون وبارت، ودريدا، وتودوروف، وليتش، وغيرهم)، وهي المرجعيات المستعارة لديه التي لا تكاد تفارقه في مساره النقدي.

 أما **الناقدة يمنى العيد** فهي تعتبر من النقاد الأوائل الذين اعتنقوا المنهج الاجتماعي لكن سرعان ما ارتكزت على الطروحات البنيوية التي كانت منتشرة في الساحة النقدية الغربية، وتطعيم نظراتها وآرائها الذاتية بمفاهيم سوسيرية، تقول: «إن قراءتي لأعمال سوسير أو لمحاضراته حول اللسانية شكلت منطلقا معرفيا أساسيا في ما يمكن تسميته بالمرحلة الثانية من تجربتي النقدية».

 فهي تنطلق من مفهوم سوسير للعلامة وتمييزه بين اللغة والكلام، ثم تنتقل للحديث عن مفاهيم البنيوية التي حصرتها في أربعة عناصر: (النسق، والتزامن والتعاقب، ومفهوم الطابع، اللاوعي للظواهر أو الآلية)، وإذ هي تشير إلى هذه المفاهيم إنما تريد من خلالها معرفة النص الأدبي وعزله عما هو خارج عنه.

**ختامـــــا:**

 يمكن القول إنّ البنيوية كاتّجاه نقدي، لم يكن إلاّ بعد توطئة معرفية علمية طويلة، طبّق في عصور ممتدة، حتى مضى عهده الزّاهر لتأتي فيما بعد مذاهب واتجاهات أخرى كالتّفكيكية والتّشريحية، أو قل تمشي إلى جنبها، وهذا بعد أن أبت البنيوية إلا أن تكتفي بداخل النّص الأدبي دونما النّظر إلى الخارج متجاهلة تماما المعطيات التّاريخية والسّياقية للمؤلف، هذا أدى إلى البحث عن سبيل آخر لنقد النّص.

يبقى للبنيوية أهمّيتها إذ كانت وليدة الفكر اللّساني الذّي يعدّ نقله في اللّغويات العالمية[[1]](#endnote-1).

 ما يميّز الطّرح البنيوي نظرته المغلقة إلى النّص، وهي نظرة تجريدية، صورية، خلقت بين النّص والتّاريخ مسافة شاسعة، حيث غيّبت البعد الإنساني في بناء النّصوص وتحليلها، وقد أثارت حولها نقاشات كانت بمثابة الانطلاقة النقدية لظهور حركات نقدية وفلسفية واجتماعية. جاءت لتعوّض الأسس النظرية للنظرية البنيوية النصية، نذكر منها: النظرية التّفكيكية، النقد الثقافي، نقد ما بعد الكولونيالي، نظرية القراءة والتلقي...الخ.

**قائمة المراجع:**

1. البنيوية وما بعدها: من ليفي ستراوس إلى دريدا.
2. صلاح فضل، نظرية البنائية.
3. عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد.
4. -----------، النّص الأدبي من أين وإلى أين؟
5. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض.
6. أحمد الرّقب، نقد النقد، يوسف بكار ناقدا.
7. د. وهيبة جراح، محاضرات في مقياس المناهج النّقدية المعاصرة، المركز الجامعي، ميلة.
8. د. بن علي لونيس، محاضرات في مقياس المناهج النقدية المعاصرة، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية.
9. د. يوسف رحيم، محاضرات في مقياس المقاربات النقدية المعاصرة، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية.
1. [↑](#endnote-ref-1)